

سورة إبراهيم

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾.

(وأما قولهم^(١): لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بالستنا وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا على ما يشهد لهما الكتاب الذي أتى به هذا الرجل حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ...﴾، وقال في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا...﴾ [النحل: ٣٦].

فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن إثبات رسول من قبله إليكم لا يمنع إثبات رسول ثان، فإن بني إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى ﷺ وكانوا على شريعة التوراة، ثم بعث الله - تبارك وتعالى إليهم المسيح ﷺ ووجب عليهم الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافراً وإن قال إنني متمسك بالكتاب الذي أنزل إليّ.

فكذلك إذا أرسل الله رسولاً بعد المسيح وجب الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافراً، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بني إسرائيل كان كافراً. وبنو إسرائيل أكثر اختصاصاً بموسى والتوراة من الروم وغيرهم. فالمسيح والإنجيل كانوا عبرانيين والتوراة عبرانية.

الوجه الثاني: دعواهم أنهم متمسكون في هذا الوقت بالدين الذي نقله الحواريون عن المسيح ﷺ كذب ظاهر، بل هم عامة ما هم عليه من الدين، عقائده وشرائعه، كالأمانة والصلاة إلى المشرق، واتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس، واتخاذها وسائل، والاستشفاع بأصحابها، وجعل الأعياد بأسمائهم، وبناء الكنائس على

(١) أي أهل الكتاب.

أسمائهم، واستحلال الخنزير، وترك الختان، والرهبانية، وجعل الصيام في الربيع، وجعله خمسين يوماً، والصلوات والقرايين والناموس لم ينقله الحواريون عن المسيح، ولا هو موجود لا في التوراة ولا في الإنجيل، وإنما هم متمسكون بقليل مما جاءت به الأنبياء، وأما كفرياتهم وبدعهم فكثيرة جداً لم ينقل أحد عن المسيح والحواريين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه في صلاتهم السحرية: «تعالوا بنا نسجد للمسيح إلهنا»، وفي الصلاة الثانية والثالثة: «يا والدة الإله مريم العذراء افتحي لنا أبواب الرحمة».

الوجه الثالث: قولهم إنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلغاتهم إنما يستقيم إن كان صحيحاً في بعض النصارى لا في جميعهم، فإن العرب من النصارى وغير العرب لم يسلم أحد إليهم توراة ولا إنجيلاً بلسانهم، وهذا أمر معروف ولا توجد قط توراة ولا إنجيل معرب من زمن الحواريين، وإنما عربت في الأزمان المتأخرة فإذا كانت النصارى من العرب تقوم عليهم الحجة قبل محمد ﷺ بكتاب نزل بغير لسانهم ثم عرب لهم، فكيف لا تقوم على الروم وغيرهم الحجة بكتاب نزل بغير لسانهم ثم ترجم بلسانهم؟.

الوجه الرابع: أن يقال: الأمة إذا غيرت دين رسولها الذي أرسل إليها وبدلته أرسل الله إليها من يدعوها إلى الدين الذي يحبه الله ويرضاه، كما أن بني إسرائيل لما غيروا دين موسى وبدلوه، بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين الذي يحبه ويرضاه، وكذلك النصارى لما بدلوا دين المسيح وغيروه، بعث الله إليهم وإلى غيرهم محمداً ﷺ بالدين الذي يحبه ويرضاه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١).

وأولئك البقايا الذين كانوا متمسكين بدين المسيح قبل بعث محمد ﷺ كانوا على دين الله ﷻ وأما من حين بعث محمد ﷺ فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٢).

الوجه الخامس: أن يقال: دعواهم أن الرسل سلموا إليهم التوراة والإنجيل وسائر النبوات باثنين وسبعين لساناً، وأنها باقية إلى اليوم على لفظ واحد دعوى يعلم أن قائلها يتكلم بلا علم بل مفتر كذاب وذلك أن هذا يقتضي أنه الآن في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لساناً، كلها منقولة عن الحواريين وكلها متفقة غير مختلفة البتة، فهذا^(١) أربع دعاوى: أنها موجودة باثنين وسبعين لساناً، وأنها متفقة، وأنها كلها منقولة عن الحواريين، الرابعة أنهم معصومون.

فيقال: من الذي منكم لو قدر أن هذه الكتب التي باثنين وسبعين لساناً هي عن الحواريين، وهي موجودة اليوم، فمن الذي يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضاً؟ وذلك لا يمكن إلا لمن يعلم الاثنتين وسبعين لساناً ويكون ما عنده من الكتب يعلم أنها مأخوذة عن الحواريين ويعلم أن كل نسخة في العالم بهذا اللسان توافق النسخة التي عنده وإلا فلو جمع اثنين وسبعين نسخة باثنين وسبعين لساناً لم يعلم أن كل نسخة من هذه هي المأخوذة عن الحواريين إن قدر أنه أخذ عنهم اثنان وسبعون لساناً ولا يعلم أن كل نسخة في العالم توافق تلك النسخة، فإنه من المعلوم أنه في زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتب تنقل من لسان إلى لسان كما يترجم من العبرانية إلى العربية ومن السريانية والرومية واليونانية إلى العربية وغيرها.

وحينئذ فإذا وجدت نسخة بالعربية لم يعلم أنها مما عربت بعد الحواريين أو هي من المأخوذ عن الحواريين إذا قدر أنه أخذ عنهم نسخة بالعربية ولا يمكن لأحد أن يجمع جميع النسخ المعربة ويقابل بينها، بل وقد وجدنا النسخ المعربة يخالف بعضها بعضاً في الترجمة مخالفة شديدة تمنع الثقة ببعضها، وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معربة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط وما يشهد بأنها مبدلة مغيرة لا يوثق بها ورأيت من التوراة المعربة من النسخ ما يكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب، فكيف يمكنه أن يجمع جميع النسخ التي بالاثنتين وسبعين لساناً ويقابل بين نسخ كل لسان حتى يكون فيها النسخة القديمة المأخوذة عن الحواريين؟ ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة ولا يمكن ذلك إلا لمن يكون عارفاً بالاثنتين وسبعين لساناً معرفة تامة، وليس في بني آدم من يقدر على ذلك، ولو قدر وجود ذلك فلم يعرف أن القادر على ذلك فعل ذلك وأخبرنا باتفاقها.

(١) كذا في الأصل.

ولو وجد ذلك لكان هذا خبر واحد^(١) أو أن يترجم كل لسان من يعلم صحة ترجمته حتى تنتهي الترجمة إلى لسان واحد كالعربي مثلاً ويعلم حينئذ اتفاقها، وإلا فإذا ترجم هذا الكتاب بلسان أو لسانين أو أكثر وترجم الآخر كذلك لم يعلم اتفاقها، إن لم يعلم أن المعنى بهذا اللسان هو المعنى بهذا اللسان وهذا لا يكون إلا ممن يعرف اللسانين أو من يترجم له اللسانين باللسان الذي يعرفه.

ومعلوم أن أحداً لم يترجم له الاثنان وسبعون لساناً.

وحينئذ فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لساناً أو الجزم بأن نسخ كل لسان متفقه جزم بما لا يعلم صحته لو لم يكن في الأرض اليوم الاثنان وسبعون لساناً منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك، فكيف وأكثر ما بأيدي الناس هو مما ترجم بعد ذلك بالعربي وغيره؟.

هذا إذا ثبت أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لساناً وأنها باقية إلى اليوم، وهذا أمر لا يمكن أحداً معرفته، فليس اليوم توراة، وإنجيل، ونبوات، يشهد لها أحد أنها مترجمة باللسان العربي من عهد الحواريين بل ولا بأكثر الألسنة، وإلا فإذا قدر أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لساناً مع حصول الترجمة بعد ذلك وكثرة المترجمات، أمكن وقوع التغيير في بعض المترجمات، وحينئذ فالعلم بأن تلك النسخ القديمة لا تغيير فيها لا يمنع وقوع التغيير في بعض ما ترجم بعدها أو في بعض ما نسخ منها، ولا سبيل إلى العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لساناً بخلاف القرآن الذي هو بلسان العرب وخط العرب، فإن العلم باتفاق ما يوجد من نسخة ممكن وهو محفوظ في الصدور ولا يحتاج إلى حفظ في الكتب فهو منقول بالتواتر لفظاً وخطاً.

الوجه السادس: قولهم وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا على ما يشهد لهما الكتاب الذي أتى به هذا الرجل، فيقال لهم: ليس في القرآن ما يشهد لكم بأن التوراة والإنجيل سلمت إليكم بلسانكم فاستشهادكم بالقرآن على هذه الدعوة من جنس استشهادكم به على أن دينكم حق.

ومن جنس استشهادكم بالنبوات على ما أحدثتموه وغيرتم به دين المسيح عليه السلام من التثليث والاتحاد وغير ذلك وقولهم حيث يقول الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

(١) كذا في الأصل.

رَسُولٍ إِلَّا بِلسَانِ قَوْمِهِ... ﴿١﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا...﴾ [النحل: ٣٦].

فيقال: لا ريب أن قوم موسى ﷺ هم بنو إسرائيل وبلسانهم نزلت التوراة، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح ﷺ وبلسانهم كان المسيح يتكلم فلم يخاطب أحد من الرسولين أحد^(١) إلا باللسان العبراني، لم يتكلم أحد منهما لا برومية، ولا سريانية، ولا يونانية، ولا قبطية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا...﴾، كلام مطلق عام، كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ...﴾ [فاطر: ٢٤]. ليس في هذا تعرض لكون التوراة والإنجيل سلمت إليهم بالستهم.

الوجه السابع: أن يقال عمدتهم في هذه الحجة أنهم يقولون: الحواريون هم عندنا رسل الله كإبراهيم وموسى، والمسيح عندنا هو الله وهو أرسل إلينا هؤلاء فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا وأن يكونوا سلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا.

فيقال لهم: هب أنكم تدعون هذا وتعتقدونه ونحن سنبين - إن شاء الله تعالى - أن هذه دعاوى باطلة لكن أنتم في هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذي هو القرآن الذي جاء به محمد ﷺ يشهد لكم بذلك وهذا كذب ظاهر على محمد ﷺ وعلى كتابه وأنتم صدرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم، ونحن نبين كذبكم وافتراءكم عليه سواء أقررتم بنبوته أو لم تقرروا بها، فإنه من المعلوم يقيناً عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله، بل كفر من قال ذلك، ولا يشهد للحواريين بأنهم رسل أرسلهم الله، بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا إنا مؤمنون مسلمون وأنهم قالوا نحن أنصار الله كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله، بل وأنهم أفضل من الحواريين لكون أمتهم خير الأمم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَمَنْتَ عَلَافَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَافِيَةً فَايْتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عِدْوَةٍ فَأَصْبَحُوا نَظِيرًا ﴿٥٨﴾ [الصف].

(١) كذا بالأصل، والجماعة: أحداً.

وسياتي الكلام على هذا مبسوطاً ونبين أن الرسل المذكورين في سورة «يس» ليس هم الحواريين ولا كانوا رسلاً للمسيح، بل كان هذا الإرسال قبل المسيح وأهل القرية كذبوا أولئك الرسل فأهلكهم الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (١٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿١٩﴾ [يس].

والرسل المذكورون في سورة «يس» هم ثلاثة، وكان في القرية رجل آمن بهم، وهذه وإن كانت أنطاكية فكان هذا الإرسال قبل المسيح، والمسيح ﷺ ذهب إلى أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السماء، ولم يعزوا بثالث ولا كان حبيب النجار موجوداً إذ ذاك، وآمن أهل أنطاكية بالمسيح ﷺ وهي أول مدينة آمنت به، كما قد بسط في غير هذا الموضوع.

والمقصود هنا: أن محمداً ﷺ لم يشهد للمسيح بالإلهية ولا للحواريين بأنهم رسل الله، ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم، ولا بأنهم معصومون، وما ذكره من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ...﴾.

إنما يتناول رسل الله، لا رسل رسل الله بل رسل رسل الله يجوز أن يبلغوا رسالات الرسل بلسان الرسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان، كانت رسل الرسل تخاطبهم بلسانهم، لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهية بلسانهم، بل يكفي أن يقرءوها بلسان الأنبياء ﷺ ثم يترجموها بلسان أولئك، وهو سبحانه قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾، ولم يقل وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه، بل محمداً أرسل بلسان قومه وهم قريش، وأرسل إلى قومه وغير قومه كما يذكرون ذلك عن المسيح ﷺ (١) هـ.

وقال رحمه الله: ﴿﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ فهو كما قال تعالى، وقوم محمداً ﷺ هم قريش، وبلسانهم أرسل، وهو سبحانه لم يقل: وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه، بل الرسول يبعثه الله إلى قومه وغير قومه، كما تقول النصارى: إنه بعث المسيح ﷺ، والحواريين إلى غير بني إسرائيل، وليسوا من قومه فكذلك بعث محمداً ﷺ إلى قومه وغير قومه. ولكن إنما يبعث بلسان قومه، ليبين لهم،

ثم يحصل البيان لغيرهم بتوسط البيان لهم، إما بلغتهم، ولسانهم وإما بالترجمة لهم، ولو لم يتبين لقومه أولاً لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم، وإذا تبين لقومه أولاً حصل البيان لهم ولغيرهم بتوسطهم، وقومهم إليهم بُعِثَ أولاً ولهم دعا أولاً، وأُنذِرَ أولاً، وليس في هذا أنه لم يرسل إلى غيرهم، لكن إذا تبين لقومه لكونه بلسانهم، أمكن بعد هذا أن يعرفه غير قومه، إما بتعلمه بلسانهم، وإما بتعريف بلسان يفهم به، والرجل يكتب كتاب علم، في طب أو نحو أو حساب بلسان قومه، ثم يترجم ذلك الكتاب، وينقل إلى لغات آخر وينتفع به أقوام آخرون، كما ترجمت كتب الطب والحساب، التي صنفت بغير العربي وانتفع بها العرب، وعرفوا مراد أصحابها، وإن كان المصنف لها أولاً إنما صنفها بلسان قومه، وإذا كان هذا في بيان الأمور التي لا تتعلق بها سعادة الآخرة والنجاة من عذاب الله، فكيف يمتنع في العلوم التي تتعلق بها سعادة الآخرة والنجاة من العذاب، أن ينقل من لسان إلى لسان، حتى يفهم أهل اللسان الثاني بها ما أراده بها المتكلم بها أولاً باللسان الأول) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والله سبحانه يرسل الرسل من جنس المرسل إليهم؛ لأنه أتم لحصول المقصود بالرسالة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩] ولهذا يقول: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والله تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، لم يقل: وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه، لكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبهم أولاً ليبين لقومه، فإذا بين لقومه ما أراده، حصل بذلك المقصود لهم ولغيرهم؛ فإن قومه الذين بلغ إليهم أولاً يمكنهم أن يبلغوا عنه اللفظ، ويمكنهم أن ينقلوا عنه المعنى لمن لا يعرف اللغة، ويمكن غيرهم أن يتعلم منهم لسانه فيعرف مراده، فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بمن ينقل عن الرسول، تارة المعنى، وتارة اللفظ، ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى، والقرآن يجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء) ١. هـ^(٣).

(٢) تفسير آيات أشكلت (١/٢٣٤).

(١) الجواب الصحيح (٢/٧٠ - ٧١).

(٣) الجواب الصحيح (٢/٥٤ - ٥٥).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١).

(وقد قال لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ﴾ وهي تتناول أيام نعمه وأيام نقمه ليشكروا ويعتبروا).

ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. فإن ذكر النعم يدعو إلى الشكر؛ وذكر النقم يقتضي الصبر على فعل المأمور وإن كرهته النفس. وعن المحظور وإن أحبته النفس، لثلا يصيبه ما أصاب غيره من النعمة) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (قال السلف: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾) ا.هـ (٢).

قال رحمه الله: (والله تعالى مدح في كتابه الصبار الشكور: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فالصبر والشكر على ما يقدره الرب على عبده من السراء والضراء من النعم والمصائب التي يبلوه بها والسيئات، فعليه أن يتلقى المصائب بالصبر، والنعم بالشكر، ومن النعم ما ييسره له من أفعال الخير، ومنها ما هي خارجة عن أفعاله فيشهد القدر عند فعله للطاعات، وعند إنعام الله عليه فيشكره، ويشهده عند المصائب فيصبر، وأما عند ذنوبه فيكون مستغفراً تائباً، كما قال: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وأما من عكس هذا فشهد القدر عند ذنوبه وشهد فعله عند الحسنات، فهو من أعظم المجرمين، ومن شهد فعله فيهما فهو قدرى، ومن شهد القدر فيهما ولم يعترف بالذنب ويستغفره فهو من جنس المشركين، وأما المؤمن فيقول: أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (فأخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وذكرهما في أربعة مواضع من كتابه) ا.هـ (٤).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٥).

(٢) جامع المسائل (١/١٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٤٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٩٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٣٢٨).

﴿وَإِنَّا لَنِي سَأَلْنَا لِمَ تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلَا اللَّهُ شَأْنُكُمْ﴾ الآية.

وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي والإنكار على من لم يقر بهذا النفي، والمعنى: ما في الله شك، وأنتم تعلمون أنه ليس في الله شك، ولكن تجحدون انتفاء الشك جحوداً تستحقون أن يُنكر عليكم هذا الجحد فدل ذلك على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار، وإلا فالأمر النظري مستلزم للشك قبل العلم، لا سيما إذا كانت طرقة خفية طويلة، فكل من لم يعرف تلك الطرق يشك فيه، فإن كان لا طريق للمعرفة إلا طريق الأعراض وطريقة الوجود ونحو ذلك، فالشك في الله حاصل لمن لم يعرف هذه الطرق، وهم جمهور الخلق، بل وأكثر من سلك هذه الطرق أيضاً إذا عرف حقيقتها) ١. هـ^(١).

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلَا اللَّهُ شَأْنُكُمْ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أُنثَىٰ مِنَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

(ولهذا قالت الأنبياء ﷺ لأممهم: ﴿أَلَا اللَّهُ شَأْنُكُمْ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا استفهام إنكار يتضمن النفي، ويبين أنه ليس في الله شك) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قول الرسل: ﴿أَلَا اللَّهُ شَأْنُكُمْ﴾ هو نفي، أي ليس في الله شك. وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك فهذا استفهام تقرير.

فإن حرف الإستفهام إذا دخل على حرف النفي كان تقريراً، كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الإشراح]، ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد]، ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: ٧٠]، ومثله كثير بخلاف استفهام فرعون، فإنه استفهام إنكار، لا تقرير، إذ ليس هناك إلا أداة الاستفهام فقط، ودل سياق الكلام على أنه إنكار) ١. هـ^(٣).

قال ابن القيم: (فأما الاستدلال بالصنعة فكثير. وأما الاستدلال بالصانع فله شأن. هو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم: ﴿أَلَا اللَّهُ شَأْنُكُمْ﴾ أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف

(١) درء تعارض العقل (٨/٤٤١ - ٤٤٢). (٢) درء تعارض العقل (٨/٤٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٣٣٩ - ٣٤٠).

يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .
وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كيف يطلب
الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل) ١. هـ^(١)

وقال رحمه الله: (قال موسى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَمُؤُودٍ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي
أَنفُسِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى
أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُوتُنَا
يَسْطَلِينَ مُّجِيبٍ ﴿١١﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهُ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

فأخبر سبحانه: عن مناظرة الكفار للرسول في الربوبية أولاً، فإنهم في شك من الله
الذي يدعونهم إليه، وفي النبوة ثانياً بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، وهذا بحث كفار
الفلاسفة بعينه؛ وإن كان مكذباً له فهو التكذيب، والتكذيب أخص من الكفر، فكل
مكذب لما جاءت به الرسل فهو كافر، وليس كل كافر مكذباً، بل قد يكون مرتاباً، إن
كان ناظراً فيه أو معرضاً عنه بعد أن لم يكن ناظراً فيه، وقد يكون غافلاً عنه لم يتصوره
بحال، لكن عقوبة هذا موقوفة على تبليغ المرسل إليه.

وكل واحد من الأمرين في أن يضم إلى المعرفة المجملة، إما تكذيب، وإما كفر
بلا تكذيب؛ واقع كثيراً في سالكي الطريقتين، النظر في القياس المجرد، والعمل بالعبادة
المجردة.

مثال ذلك: أن كثيراً من النظائر أثبت واجب الوجود، أو صانع العالم، وذهبوا
في تعيينه وصفاته مذاهب يضيق هذا الموضوع عن تفصيلها - معروفة في كتب المقالات
من أهل ملتنا، وغير أهل ملتنا - مقالات الإسلاميين المصلين، ومقالات غيرهم، وكثيراً
من العباد المتأخرين أثبت أيضاً ذلك إثباتاً مجملاً، وتوهموا فيه أنواعاً من التوهمات
الكفرية، الذي يصفها عارفوهم) ١. هـ^(٢).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٧).

(وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٧) فهم في هذه الحال لا يقدرون مما كسبوا على شيء؛ فدل على أنهم في غير هذا يقدرون على ما كسبوا، وكذلك غيرهم يقدر على ما كسب، فالمراد بالمكسوب المال المكسوب) (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وأحبط الأعمال الصالحة بزواله، في مثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَابٍ يَاقِعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧]، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان] (٢) هـ.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١).

(كذلك قول الشيطان لأتباعه: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي بمغيثكم وما أنتم بمغيثي) (٣) هـ.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٢).

(قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٢) تَوَفَّىٰ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَاذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (٢٦) فالكلمتان: كلمة الإيمان واعتقاد التوحيد، وكلمة الكفر واعتقاد الشرك) (٤) هـ.

وقال رحمه الله: (فكل عمل من أعمال البر فهو جزء من التوحيد ومن العمل لله،

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٢ - ٦).

(١) مجموع الفتاوى (٨/١٥).

(٤) بيان تلبس الجهمية (١/٤٥٦).

(٣) الاستغاثة (١٣٩).

ومن عبادة الله توحيده، ومن فروع ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤٤﴾ تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

فالكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت. فجميع الأعمال الحسنة تضاعف لصاحبها، وجميعها من عبادة الله وحده، وهي من فروع قول: «لا إله إلا الله»، بل الأعمال تحقق قول: «لا إله إلا الله»، فإن الإيمان قول وعمل. قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق» (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية... فالكلمة الطيبة التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت، وكذلك السيئة، هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك؛ فإن الإنسان حارث همام لا بد له من عمل ولا بد له من مقصود يعمل لأجله. وإن عمل لله ولغيره، فهو شرك) (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (ولهذا كانت كلمة التوحيد ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾. وقال في كلمة الشرك: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٣). فليس لها أساس ثابت، ولا فرع ثابت، إذ كانت باطلة، كأقوال الكاذبين وأعمالهم. بل هي أعظم الكذب والافتراء مع الحب لها.

والشرك أعظم الظلم، قال ابن مسعود، قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» (٣) هـ. (٤).

وقال رحمه الله: (وكانت كما ضرب الله المثلين: مثل البناء والشجرة. فقال في المؤمنين والمنافقين: ﴿أَفَمَنْ أَسْسَكَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْسَكَ بُيُوتَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦) [التوبة]، وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤٤﴾ تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) تفسير آيات أشكلت (١/٣٤٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٤٤٠ - ٤٤١).

(٣) أخرجه النسائي (٧/٩٠)، أحمد (١/٣٨٠، ٤٣١)، وابن حبان (٤٤١٤ - الإحسان) والحديث صحيح.

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/٥٧٧).

بَتَدَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٦﴾
 يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ
 وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٧﴾ والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء؛ ولهذا
 يقال فيه الأصل ما ابتنى عليه غيره أو ما تفرع عنه غيره.

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء، كما قيل:

أيها المغتدى لتطلب علماً كل علم عبد لعلم الرسول
 تطلب الفرع كي تصحح حكماً ثم أغفلت أصل أصل الأصول

والله يهدينا وسائر إخواننا المؤمنين إلى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله
 عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وهذه الأصول ينبنى عليها ما في القلوب، ويتفرع عليها، وقد ضرب الله مثل
 الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين.
 (الكلمة) هي قضية جازمة وعقيدة جامعة، ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلام وخواتمه
 وجوامعه؛ فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرة على أتم قضية، فالكلمة الطيبة
 في قلوب المؤمنين - وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية - كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها
 في السماء، فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة
 وفرعها في السماء: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] والله
 سبحانه مثل الكلمة الطيبة، أي كلمة التوحيد، بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في
 السماء.

فبين ذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن، ولها فرع عال، وهي
 ثابتة في قلب ثابت، كما قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة، والإيمان في قلبه ثابت مستقر، وهو في
 نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه، والكلمة الخبيثة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ
 فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ استوصلت واجتثت، كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض ﴿مَا لَهَا مِنْ
 قَرَارٍ﴾ لا مكان تستقر فيه ولا استقرار في المكان؛ فإن القرار يراد به مكان الاستقرار
 كما قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ أَلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٩] وقال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾
 [غافر: ٦٤]. ويقال: فلان ما له قرار: أي ثبات، وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا،
 فالمبطل ليس قوله ثابتاً في قلبه، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر، كما قال تعالى في المثل

الآخر: ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] فإنه وإن اعتقده مدة فإنه عند الحقيقة يخونه، كالذي يشرك بالله، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله.

وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع في السماء يوصله إلى الله، فإنه سبحانه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول؛ لأنه ضيع الأصول؛ ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى: ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَتَبَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْتَفِتَ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ وَمَا هُوَ بِالْبَلِغِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]، والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب؛ بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله) ١. هـ (١).

وقال رحمه الله: (ولقد كان من أصول الإيمان: أن يثبت الله العبد بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦) ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧).

والكلمة: أصل العقيدة. فإن الاعتقاد هو الكلمة التي يعتقدونها المرء، وأطيب الكلام والعقائد: كلمة التوحيد واعتقاد أن لا إله إلا الله، وأخبت الكلام والعقائد: كلمة الشرك. وهو اتخاذ إله مع الله. فإن ذلك باطل لا حقيقة له ولهذا قال سبحانه: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، ولهذا كان كلما بحث الباحث وعمل العامل على هذه الكلمات والعقائد الخبيثة لا يزداد إلا ضلالاً وبعداً عن الحق وعلماً بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا بَقِيعَةً يَخَسِبُهَا الظَّمْثَانُ مَاءً حَوْثًا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٣٩) ﴿أَوْ كَطُلُمُوتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ

فَوَقَّهٖ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظَلَمَتْهُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدُ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ
اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَمْ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ [النور].

فذكر سبحانه مثلين:

(أحدهما): مثل الكفر والجهل المركب الذي يحسبه صاحبه موجوداً، وفي الواقع يكون خيالاً معدوماً كالسراب، وإن القلب عطشان إلى الحق كعطش الجسد إلى الماء، فإذا طلب ما ظنه ماءً وجده سراياً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب. وهكذا تجد عامة هؤلاء الخارجين عن السنة والجماعة.

(والمثل الثاني): مثل الكفر والجهل البسيط الذي لا يتبين فيه صاحبه حقاً ولا يرى فيه هدى، والكفر المركب مستلزم للبسيط، وكل كفر فلا بد فيه من جهل مركب. فضرب الله سبحانه المثليين بذلك ليبين حال الاعتقاد الفاسد، ويبين حال عدم معرفة الحق - وهو يشبه حال المغضوب عليهم والضالين - حال المصمم على الباطل حتى يحل به العذاب، وحال الضال الذي لا يرى طريق الهدى.

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يرزقنا الاعتصام بالكتاب والسنة) ١. هـ^(١).

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٧٧﴾.

(وثبت عنه في الصحيح «أن الميت يسأل في قبره؛ فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك»، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي، ويقال له: ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول المؤمن: هو عبد الله ورسوله، جاءنا بالبينات والهدى فأمانا به واتبعنا؛ وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ: أنها نزلت في عذاب القبر^(٢)، وكذلك يتكلم المنافق فيقول: آه، آه، لا أدري! سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته؛ فيضرب بمرزبة من حديد،

(١) مجموع الفتاوى (٧٤/٤ - ٧٥).

(٢) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (٢٢١/٢) الطبري (٢١٧/١٣) عن المسيب بن رافع وروي كثيراً عن غير واحد من السلف والحديث يحتمل التحسين كما قال صاحب المرويات رعاها المولى.

فيصبح صيحة يسمعا كل شيء إلا الإنسان^(١).

وثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لولا أن لا تدافنوا لسألت الله أن يسمعكم من عذاب القبر مثل الذي أسمع»^(٢)، وثبت عنه في الصحيح أنه نادى المشركين يوم بدر: لما ألقاهم في القليب وقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»^(٣). والآثار في هذا كثيرة منتشرة، والله أعلم. ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وفي لفظ: «فيأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان: ما هذا الرجل الذي أرسل فيكم؟ قال: فيقول: هو رسول الله. فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به، وصدقت به. فذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٥)، قال: فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فافرشوا له في الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها، قال: ويفسح له مد بصره قال: وإن الكافر فذكر موته. وقال: وتعاد روحه إلى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه، هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري؛ فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوا له من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار قال: ويأتيه من حرها وسمومها قال: ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه قال: ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار تراباً، قال: ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار تراباً، قال: فيضربه بها ضربة يسمعا ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير تراباً. ثم تعاد فيه الروح»^(٥).

فقد صرح الحديث بإعادة الروح إلى الجسد، وباختلاف أضلاعه، وهذا بين في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

(١) هذا في إحدى روايات البراء وغيره في عذاب القبر.

(٢) مسلم (٢٨٦٧).

(٣) هذا في كلام النبي ﷺ لقتلى معركة بدر من المشركين الذين ألقوا في «القليب» والحديث متفق عليه.

(٤) مجموع الفتاوى (٤/٢٧٣، ٢٨٧) (٥/٥٢٤) (٢٤/٣٧٩)، جامع المسائل (٣/٣٥) أسباب النزول فقط.

(٥) هذا حديث البراء بن عازب الطويل المعروف.

وقد روي مثل حديث البراء في قبض الروح والمسألة، والنعيم والعذاب، رواه أبو هريرة، وحديثه في المسند وغيره، ورواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «إن الميت إذا وضع في قبره يسمع خفق نعالهم إذا ولوا عنه مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الصدقة عن شماله، وكان فعل الخير من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجله، فيأتيه الملكان من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل. ثم يؤتى عن يمينه، ويقول الصيام: ما قبلي مدخل. ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل. ثم يؤتى من قبل رجله فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة، والمعروف والإحسان: ما قبلي مدخل، فيقول له: اجلس. فجلس قد مثلت له الشمس، وقد أصغت للغراب، فقال: دعوني حتى أصلي. فيقولون: إنك ستصلي. أخبرنا عما نسألك عنه، رأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: محمد. نشهد أنه رسول الله، جاء بالحق من عند الله. فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفتح له باب إلى الجنة. فيقال: هذا مقعدك، وما أعد الله لك بها؛ فيزداد غبطة وسروراً؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدئ منه، وتجعل روحه نسيم طير يعلق في شجر الجنة قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٢).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَفَرُوا﴾^(٣)

(ومن لم يُنعم عليه بالامثال بل خذله حتى كفر وعصى فقد شقي لما بدل نعمة الله كفرأ كما قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَفَرُوا﴾^(٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾^(٣) .

وقال رحمه الله: (ومن استقرأ أحوال العالم تبين له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرساله ﷺ وأن الذين ردوا رسالته، هم من قال الله

(١) عبد الرزاق في «مصنفه» (٦٧٠٣)، وابن أبي شيبة (٣٨٣/٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١٥/١٣) - (٢١٦)، والحاكم (٣٧٩/١ - ٣٨٠)، ابن حبان (٣١١٣ - الإحسان) والحديث حسن إن شاء الله تعالى.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٨٨ - ٢٩٠). (٣) مجموع الفتاوى (١١/٣٥٧).

فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (١٨)، ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَذَا مَا مَنَعَنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (١٩) [الأنعام] ١. هـ^(١).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٢٢).

(وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٢٢) وَآتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٣)، ومعلوم أن الله حكماً في خلق الشمس والقمر، والليل والنهار، غير انتفاع بني آدم وكذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (٢٤) [الفرقان]، وفيها حكم أخرى) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ والدائب نظير الدائم والباء والميم متقاربتان ومنه اللازب واللازم قال ابن عطية: ﴿دَائِبَيْنِ﴾ أي متماديين، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه: «إن هذا الجمل شكى إلي أنك تجيعه وتدئبه»^(٣) أي تديمه في العمل له والخدمة، قال: وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب، وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثيرة، قال: وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفعه إلى ابن عباس^(٤)، أنه قال: معناه دائبين في طاعة الله قال^(٥): وهذا قول إن كان يراد به أن الطاعة انقياد هما للتسخير فذلك موجود في طاعة قوله: [سخر] وإن كان يراد أنها طاعة مقدورة كطاعة العبادة من البشر فهذا بعيد^(٦).

قلت: ليس هذا ببعيد بل عليه دلت الأدلة الكثيرة كما هو مذكور في مواضع، وقالت طائفة منهم البغوي^(٧): وهذا لفظه: (دائبين يجريان فيما يعود إلى مصالح عباد الله لا يفتران) قال ابن عباس: دؤوبهما في طاعة الله، ولفظ أبي الفرج^(٨). دائبين في

(١) الجواب الصحيح (٥/٨٨).

(٢) الجواب الصحيح (١/٤٣١).

(٣) أبو داود (٢٥٤٩)، وأحمد (١/٢٠٤، ٢٠٥)، والحديث صحيح.

(٤) ابن جرير (١٣/٢٢٥).

(٥) ابن عطية (٨/٢٤٧ - ٢٤٨).

(٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٨/٢٤٧ - ٢٤٨).

(٧) البغوي (٣/٢٩).

(٨) زاد المسير (٤/٣٦٤).

إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتران قال ومعنى الدؤوب مرور الشيء على عادة جارية فيه .

قلت : وإذا كان دأبهم هو عادتهم وعملهم الذي كانوا مصرين عليه فالمقصود وأن هؤلاء أشبهوهم في العمل فيشبهونهم في الجزاء فحقيق بهم ما حاق بأولئك) ا.هـ^(١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٢٥) .

(والخليل ﷺ يقول : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٢٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾) ومن ظن في عباد الأصنام : أنهم كانوا يعتقدون أنها تخلق العالم ، أو أنها تنزل المطر أو تنبت النبات ، أو تخلق الحيوان ، أو غير ذلك ؛ فهو جاهل بهم ؛ بل كان قصد عباد الأوثان لأوثانهم من جنس قصد المشركين بالقبور للقبور المعظمة عندهم ، وقصد النصارى لقبور القديسين يتخذونهم شفعاء ووسائط ووسائل . بل قد ثبت عندنا بالنقل الصحيح أن من مساجدي^(٢) القبور من يفعل بها أكثر مما يفعله كثير من عباد الأصنام . ويكفي المسلم أن يعلم أن الله لم يحرم شيئاً إلا ومفسدته محضة أو غالبية . وأما ما كانت مصلحته محضة أو راجحة : فإن الله شرعه ؛ إذ الرسل بعثت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها) ا.هـ^(٣) .

وقال رحمه الله : (فإن زعم أحد أن حاجته قضيت بمثل ذلك ؛ وأنه مثل له شيخه ونحو ذلك فعباد الكواكب والأصنام ونحوهم من أهل الشرك يجري لهم مثل هذا ، كما قد تواتر ذلك عن مضي من المشركين ، وعن المشركين في هذا الزمان . فلولا ذلك ما عبدت الأصنام ونحوها ، قال الخليل ﷺ : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٢٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾) ا.هـ^(٤) .

﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ (٢٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ (٢٦) .

(والخليل يقول : ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾) ولم يقل أحد : إنهم كانوا يقولون : إن الأصنام تخلق وتحيي وتجلب الرزق ، بل عبدوها لحاجتهم إليها من جنس قصد المشركين للقبور المعظمة ، وقصد النصارى لصورة القديسين ، يتخذونهم شفعاء ووسائط ووسائل) ا.هـ^(٥) .

(٢) كذا في الأصل ، ولعلها بحذف الياء .

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/٩٠) .

(١) النبوات (٢٥١ - ٢٥٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/١٧٨) .

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (١٧٤) .

وقال رحمه الله: (وهذا كقول الخليل عن الأصنام: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَصْلَانٌ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ فنسب الإضلال إليهن، والإضلال هو ضرر لمن أضلننه، وكذلك قوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمُ غَيْرَ تَنْبِيْهِ﴾ [هود: ١٠١] ا. ه. (١).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١٧).

(وقال إبراهيم عليه السلام داعياً لأهل مكة: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّقُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩).

وقال النبي ﷺ لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالذكر: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً وإنما تدعون سميعاً قريباً؛ إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» (٢) وهذا باب واسع) ا. ه. (٣).

وقال رحمه الله: (ولما بعث الله محمداً ﷺ أوجب حجه - يقصد البيت الحرام - على كل أحد، فحجت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها، والبئر الذي شرب منها إسماعيل وأمه، هي بئر زمزم، وحديثها مذكور في صحيح البخاري، عن ابن عباس، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً ليُعْفِي أثرها على سارة.

ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندها جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء. ثم قفا إبراهيم منطقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، ليس فيه أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم» قالت: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه استقبال

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٧٤).

(٢) البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٤٣٨ - ٤٣٩).

بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء، وعطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، انطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها. ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت، هل ترى من أحد؟ فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما». فلما أشرفت المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه، تريد نفسها، فسمعت - أيضاً - فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غَوَاثُ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، - أو قال: بجناحه -، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم لم تغرف من الماء، لكان عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضيعة، فإن ههنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله». وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله»^(١)، وذكر تمام الحديث (١) هـ.^(٢)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩).

(وأما قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فالمراد بالسمع ههنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام: لأنه سميع لكل مسموع. وإذا كان كذلك فالدعاء: دعاء العبادة ودعاء الطلب، وسمع الرب تعالى له إثابته على الشناء، وإجابته للطلب، فهو سميع هذا وهذا) هـ.^(٣)

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ (٤٠).

(قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فقد طلب من الله تعالى أن يجعله

(٢) الجواب الصحيح (٥/٢١٣ - ٢١٧).

(١) البخاري (٣٣٦٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/١٥).

مقيم الصلاة، فعلم أن الله هو الذي يجعل المصلي مصلياً) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال الخليل: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ (٢١) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴿فبين أنه سبحانه هو الذي يجعله مقيم الصلاة) ا. هـ^(٢).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٣١).

(وقد دعا الخليل إبراهيم لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٣١). وقد كان ﷺ أراد أن يستغفر لأبي طالب اقتداءً بإبراهيم وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٣٣) [التوبة].

ثم ذكر الله عذر إبراهيم فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة]، وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة وعلى وجه أزر قفرة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب أنت وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله ﷻ: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: انظر ما تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ^(٣) متلطح، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»^(٤) فهذا لما مات مشركاً لم ينفعه استغفار إبراهيم مع عظم جاهه وقدره) ا. هـ^(٥).

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤١).

(كقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ و﴿لَتَزُولَ﴾^(٦) فيه قراءتان مشهورتان بالنفي والإثبات وكل قراءة لها معنى صحيح) ا. هـ^(٧).

(١) منهاج السنة (١/٤٦١ - ٤٦٢).

(٢) منهاج السنة (٥/٣٠٧).

(٣) الذبيح: ذكر الضباع.

(٤) البخاري (٤/١٦٩).

(٥) مجموع الفتاوى (١/١٤٥ - ١٤٦).

(٦) قرأ الكسائي (لتزول) بفتح اللام الأولى ورفع الثانية. وقرأ الباقون بكسر الأولى ونصب الثانية.

(٧) إرشاد المبتدئ لأبي العز: (٣٩٤).

(٧) مجموع الفتاوى (١٧/٣٨١ - ٣٨٢).

قال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمًا مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِن كَانَتْ مَكَرُهُمْ لِيَرْزُؤَ مِنْهُ أَلْبَابًا ﴿٤٦﴾﴾، وفيه قراءتان أكثر القراء يقرؤون لتزول بالنصب فيدل على النفي أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال وقرأ بعضهم لتزول بالرفع على الإثبات أي أنه كان مكرهم تزول هذا تقدير البصريين والكوفيين يقدرون: ما كان مكرهم إلا تزول، وكلا القرائتين لهما معنى صحيح، كما هو مبسوط في غير هذا الموضوع وقوله تعالى: ﴿لِيَرْزُؤَ مِنْهُ أَلْبَابًا﴾ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمِيسِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَن تَزُولًا وَلَكِنَّ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]، ومنه قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وقد قال عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وهو ينشد: صدقت. ثم قال: وكل نعيم لا محالة زائل. فقال له كذبت إن نعيم الجنة لا يزول^(١)، وليس المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ﴾، ويقول تعالى: ﴿لِيَرْزُؤَ مِنْهُ أَلْبَابًا﴾ و﴿بِمِيسِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَن تَزُولًا﴾، وهو الحركة فإنهم كانوا يتحركون والكواكب متحركة بل الأفلاك التي فيها الكواكب كانوا متحركة، وزال يستعمل لازماً ويستعمل ناقصاً من أخوات كان، فيقال في اللازم: زال يزول زوالاً كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَزُولًا﴾ و﴿مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ﴾ و﴿وَإِن كَانَتْ مَكَرُهُمْ لِيَرْزُؤَ مِنْهُ أَلْبَابًا﴾ ومنه زالت الشمس تزول زوالاً، وليس المراد بزوالها حركتها، فإنها لا تزال متحركة في رأي العين منذ تطلع إلى أن تغرب ولا يقال إنها زالت إلا إذا انحطت عن غاية الارتفاع، فإذا ارتفعت على رؤوس الناس كان غاية ارتفاعها وهو قبل الزوال، ثم إذا انحطت بعد هذا ومالت قيل زالت، ويقال لها قبل الزوال قد قام قائم الظهيرة، فيعبر عن هذا بلفظ القيام وعن آخرها بلفظ في الانحطاط من لفظ الزوال كما يعبر عنه بلفظ الاستواء، فيقال: استوت الشمس، وعن الزوال بالميل، فيقال: مالت الشمس، فكان لفظ الزوال يدل على النقص بعد الكمال والانخفاض بعد الارتفاع، والذين أقسموا من قبل ما لهم من زوال، لم يريدوا أنهم لا يموتون فإن هذا لا يقوله أحد من العقلاء، ولكن ظنوا دوام ما هم فيه من الملك والمال، وأن ذلك لا يزول عنهم وهذا باطل، ولهذا قال النبي ﷺ: «لما سُبقت ناقتة العصابة وكانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فقال رسول الله ﷺ: إن

حقاً على الله أن لا يرفع شيء من الدنيا إلا وضعه^(١)، فكلما ارتفع شيء من الدنيا فإن الله تعالى يضعه وذلك من زواله.

والزائل الذي لم يكتسب به ما يدوم نفعه يُسَمَّى باطلاً، فالموت حق والحياة باطل، فإن الباطل ضد الحق، والحق يقال على الموجود، فيكون الباطل هو المعدوم، ويقال أيضاً: على ما ينفع ويفنى نفعه، فيكون الباطل اسماً لما لا ينفع أو لما لا يدوم نفعه، ومن قول النبي ﷺ: «كل لهو يلهو به الرجل باطلاً منه إلا رميةً بقوسه أو تأديبه فرسه أو ملاعبته امرأته فإنهنَّ الحق»^(٢) رواه أبو داود وغيره عن عمر رضي الله عنه، ومن قوله ﷺ: «إن هذا الرجل لا يحب الباطل»^(٣) وهو ما لا ينفع النفع الباقي، وهو النافع في الآخرة فكل ما لا ينفع في آخره فهو باطل، وإن كان لذة حاضرة فإنها تزول وتعدّ بلا نفع يبقى، فهي باطل بهذا الاعتبار.

وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، فهذا هو باطل من الجهتين من جهة أن استحقاق الإلهية معدوم، فهو لا ينفع ولا يضر ومن جهة أن عبادة غير الله لا تنفع وإن كان مودة في الحياة الدنيا فيوم القيامة ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] ١. هـ^(٤).

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِزَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقال رحمه الله: (خرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِزَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٥) فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: على الصراط»^(٥)).

فالأرض تبدل. كما ثبت في الصحيحين «أن الناس يحشرون على أرض بيضاء عَفْرَاءَ، كقُرْصَةِ النقي، ليس فيها عَلمٌ لأحد»^(٦).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي أرض بيضاء: كهيئة الفضة، لم يعمل عليها خطيئة، ولا سُفِكَ فيها دم حرام، ويجمع الناس في صعيد واحد، يَنْفُذُهُمُ البصر، وَيُسْمِعُهُمُ

(١) مرّ تخريجه. (٢) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) المستدرک علی مجموع الفتاوی مخطوط (تحت الطبع).

(٥) مسلم (١٢٧/٨ - النووي).

(٦) البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

الداعي، حُفَاءُ عُرَاةٍ غُرُلًا، كما خلقوا. فيأخذ الناس من كرب ذلك اليوم شدته، حتى يُلْجِمَهُمُ الْعَرْقُ»^(١).

وبعضهم يرفعه إلى النبي ﷺ.

وكذا عن مجاهد وغيره من السلف^(٢).

فهذا الحديث وسائر الآثار: تبين أن الناس يحشرون على الأرض المبدلة، والقرآن يوافق على ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٣).

وحشرهم وحسابهم يكون قبل الصراط. فإن الصراط عليه ينجون إلى الجنة، ويسقط أهل النار فيها، كما ثبت في الأحاديث.

وحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم: يدل على أن التبديل وهم على الصراط، لكن البخاري لم يورده، فلعله تركه لهذه العلة وغيرها، فإن سنده جيد أو يقال: تبديل الأرض قبل الصراط، وعلى الصراط تبديل السموات.

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فالطي غير التبديل، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وفي الصحيحين: «أنه يطوي السموات، ثم يأخذهن بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» وفي لفظ «يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيده» وهو في أحاديث كثيرة.

فطي السموات لا ينافي أن يكون الخلق في موضعهم: وليس في شيء من الحديث أنهم يكونون عند الطي على الجسر، كما روي ذلك وقت تبديل الأرض غير الأرض، وإن كان في تلك الرواية ما فيها، والذي لا ريب فيه: أنه لا بد من تبديلها وطئها) ١. هـ^(٣).

تم والحمد لله

(١) ابن جرير (٢٤٩/١٣، ٢٥٠) والحاكم (٥٧٠/٤)، ورفعه البزار كما في ابن كثير، ولا يصح رفعه، وحكمه حكم المرفوع وصحح البيهقي وقفه.

(٢) هذه الأقوال عند ابن جرير.

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٢٠٢ - ٢٠٣).